جذور النقد اللغوي في التراث العربي

(عبدالقاهر الجرجاني أنموذجاً)

د.عبدالله محمد الأمين (★)

المقدمة

الحمد لله العزيز الرحمن الذي علم القرآن وخلق الإنسان علمه البيان والصلاة والسلام على النبي أفصح الناس قاطبة، وعلى آله وصحبه الذين كانوا سرجاً مضيئة في سماء الفصاحة والبيان، وعلى من اتبعهم بإحسان.

هذا بحث في جذور النقد اللغوي في التراث النقدي العربي (عبد القاهر الجرجاني أنموذجاً).

والنقد اللغوي من النظريات النقدية القديمة التي شغلت حيزاً كبيراً في تراثنا النقدي، ومن المعلوم أن النقد يتطور كسائر العلوم، وأن لكل عصر علومه ونظرياته ومقاييسه النقدية التي تقوم على أسس الذين سبقوا فهي لا تلغيها بل تطورها، وربما اتفقت معها كلياً أو جزئياً، والنقد اللغوي عند العرب قد تطور تطوراً كبيراً ونضج حتى اكتملت صورته على يدي العالم الكبير عبدالقاهر الجرجاني، في نظرية النظم ولطبيعة البحث التي تتطلب الإيجاز والقصر – سأبدأ – بشكل موجز- الحديث عن جذور النقد اللغوي في تراثنا النقدي في صورة عامة، ومن ثم الحديث عن أسباب وجود النظرية اللغوية وعلاقتها بالقرآن، ودور السياق اللغوي في رمز الدلالة والتركيب اللغوي في الصورة الفنية، مع نموذج تطبيقي موجز جاء وفق نظرية النظم للعالم الجليل عبدالقاهر الجرجاني.

والأهداف التي دفعتني لكتابة هذا البحث كثيرة، ولكن الهدف الأسمي منها الدعوة لأن يكون كثير من النقاد والأدباء، مدركين في أن بعض النظريات والمسميات والمصطلحات الغربية التي تحدثت عن السياق اللغوي والتركيب في الصورة الفنية قد أوهمت الكثيرين من أنها صاحبة الفكرة، وجاءت في ثوب كأنها الخَلقُ الجديد لهذا الإبداع.

(★) أستاذ مشارك و رئيس قسم الأدب بكلية اللغة العربية بالجامعة.

ولكن مع قليل من التأمل في تراثنا النقدي نجد أن هذه النظرية برزت في العصر الهجري الثاني حتى نضجت واكتملت على يد عبدالقاهر الجرجاني، وهذا البحث جاء للتأصيل لهذه النظرية وتتبع جذورها من مظان كتب الأدب والنقد.

وأما الدراسات السابقة التي تناولت جذور النقد اللغوي في التراث النقدي العربي قليلة، وقد جاءت في شكل بحوث نشرت في بعض المجلات ولكنها تناولت الجزئيات وأغفلت الكليات، وخاصة الدراسة التي وازنت بين الوظيفة الشعرية للنحويين الجرجاني وجاكبسون، والتي نشرت في مجلة أفق الثقافية العدد الثاني في عام أربعة وألفين للميلاد. وهناك دراسات اتجهت نحو الحديث عن اللفظ والمعنى، وربط النظم بالإعجاز والبلاغة، وهي دراسات كثيرة منها على سبيل المثال بحوث ومقالات الدكتور أحمد مطلوب التي نشرت في بعض المجلات العراقية، وهناك دراسات اتخذت منحاً مغايراً في دراسة النقد اللغوي ونظرية النظم، وقد أثارت كثيراً من القضايا الحديثة من خلال النظم واعتمدت على المقارنة بين أعلام النقد العربي، والنظريات العربية الحديثة، ومن هذه الدراسات قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجاني للدكتور محمد عبدالمطلب، ومهما يكن من أمر فإن هذه الدراسات وإن اختلفت وتباينت وجهات النظر فيها، واختلفت أغراض دراستها إلا أنها شكلت في مجملها صورة مشرقة لنظرية النظم، وكشفت عن سر قوتها، وقدرتها على الظهور بوصفها نظرية نقدية لغوية لها كيانها المستقل في النقد الأدبي الحديث تنظيراً وتطبيقاً.

وإن من أهم الأهداف التي دفعتني إلى كتابة هذا البحث إلقاء الضوء على جذور النقد اللغوي في تراثنا النقدي، ثم الحديث عن أصل فكرة النظم وعلاقتها بالقرآن، ولإثبات أن الفكر العربي كان يطور كل ما يصل إليه من أفكار ويغربلها ليصل إلى نظرية متكاملة كما فعل عبدالقاهر الجرجاني، وللرد على بعض مفكري العصر الحديث الذين تروق لهم النظريات الغربية ليعلموا أن هذه بضاعتهم ردت إليهم، ومن الأهداف التأصيل لمناهج النقد الأدبي وفق أسس استقراء الموروث الثقافي والنقدي والأدبي.

والمنهج النقدي الذي اتبعه الباحث هو المنهج الوصفي التحليلي الذي من خلاله تم استقراء جذور النقد اللغوي في تراثنا العربي.

وقد جاء البحث في هيكله مشتملاً على مبحثين والمبحث الأول فقد خصص لجذور النقد اللغوي عند العرب، والمبحث الثاني قد خصص لجذور النقد اللغوي ونظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني، وجاء في أربعة مطالب، وجاء تفصيلها على النحو التالي:

المطلب الأول: وجاء تحت عنوان: فكرة النظم وعلاقتها بالنحو.

المطلب الثاني: وقد حمل مسمى: أثر السياق اللغوي في رفد الدلالة.
المطلب الثالث: وكان تحت عنوان: التركيب اللغوي للصورة الفنية.
المطلب الرابع: والذي حمل عنوان: نموذج تطبيقي وفق نظرية النظم.
ثم خاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات مع قائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول
جذور النقد اللغوي عند العرب

النقد عند العرب صناعة وعلم، ولابد للناقد من التمكن من أدواته، ولعل أول من أشار إلى هذا ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء) عندما قال: (والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم بها كسائر أصناف العلم والصناعات) [1]، وكان ابن رشيق أوضح منه عندما قال: (... ويميز الشعر من لا يقوله كالبزّاز يميز من الثياب ما لا ينسجه، والصيرفي من الدنانير ما لا يسبكه ولا ضربه) [2].

وهذه الثقافة التي يشير إليها ابن سلام تتشعب لتشمل اللغة، والنحو والغريب، والأخبار، والأنساب، وأيام العرب وغيرها، لذلك ينسب إلى عمرو بن العلاء[3] قوله: (العلماء بالشعر أندر من الكبريت الأحمر)، أما الأصمعي فيقول: (فرسان الشعر أقل من فرسان الحرب) ويريد بفرسان الشعر النقاد والعلماء به)[4].

وقد اهتم النقد الأدبي القديم باللغة في ألفاظها وتراكيبها والحقيقة والمجاز، وما ينشأ عن ذلك من ايجاز وإطناب أو تقديم أو تأخير أو إيقاع أو تقسيم أو تكرار، فالعمل الأدبي بناء مركب تركيباً لغوياً.

ولو تتبعنا تاريخ النقد عند العرب نجد نماذج كثيرة مبثوثة في كتب الأدب والأخبار تدل على أن أصحابها يتميزون بحس لغوي كبير مكنهم هذا الحس من إبداء ملاحظات نقدية مهمة، وخاصة المفردات، ومن أمثلة ذلك ما ذكر في كتب النقد من مفاضلة النابغة الذبياني بين الأعشى وحسان بن ثابت الأنصاري، وذلك عندما أنشد حسان قوله.

---

(1) محمد بن سلام الجمحي- طبقات فحول الشعراء- ط3- ليدن- 1957م- ص9.
(2) ابن رشيق القيرواني- العمدة- ط1- ج1- القاهرة-1934م- ص97.
(3) راجع- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب- در ابتسام مرهون الصفار- ناصر حلاوي- جهينة للنشر عمان- الأردن- ط1- 2006م- ص12.
(4) إعجاز القرآن- الباقلاني محمد بن الطيب- تحقيق أحمد صقر- ط2- القاهرة- 1964م- ص23.

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال له النابغة: أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وعقب الصولي على نقد النابغة بقوله: (... فانظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغة، وديباجة شعره، قال له: أقللت أسيافك، لأنه قال: (وأسيافنا) وأسياف جمع لأدني عدد والكثير السيوف، و(الجفان) لأدني العدد والكثير الجفون والجفان، وقد أنكر آخرون قول حسان: (يلمعن بالضحى) والصواب (بالدجى)، لأنّ الضيف بالليل أكثر، ولم يقل (يسلن) لأن الجري أكثر وهو دال على كثرة مسير الدماء في ساحات المعارك. ومهما يكن من أمر فإن النقد الذي وجه إلى حسان ﷺ لا يتجاوز كونه استخدم جموع القلة بدل جموع الكثرة.

وقد رفض بعض النقاد المعاصرين منهم الأستاذ طه أحمد إبراهيم هذه الرواية، قائلاً إن النقد الذي فيها تأباه طبائع الأشياء إذ لم يكن يفرّق بين هذه الأشياء كما فرق بينها ذهن الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، البعيدة بين دلالة الألفاظ وألم بشيء من المنطق[1].

ويمكن الرد على هؤلاء بأن القصة ليس فيها ما يدعو إلى الشك القائم على معرفة جموع القلة أو الكثرة، فالنابغة ميز بحسه اللغوي وسليقته بين استخدامين لغويين ساعدته عليهما فطرته الأدبية، فعرف وفرق بين (أسياف) و(سيوف) وبين (جفنات) و(جفان)؛ فلاحظ في الأولى دلالة القلة، وفي الثانية دلالة الكثرة، وقد قصد من هذه الملاحظات من إدراكه للمضمون الشعري للنص وهو (الفخر) الذي تناسبه الكثرة في كل شيء، ومعرفة كهذه ليست بعيدة عن عرب الجاهلية وعبقرية النابغة الذبياني، وهو أمر طبيعي مثل هذه الفروق الدقيقة، وواضح أن النابغة لم ينظر إلى الكلمة في دلالتها المعجمية بل نظر إلى دلالتها الرمزية والإيحائية، وعلى هذا فإن كلمة (أسياف) يمكن أن تفهم بدلالاتها الرمزية القائمة على الحماسة والشجاعة والإقدام والنجدة والفتك بدلالة الدماء التي جاءت بعدها.

والقصة في مجملها تدل على أن النقد في هذا العصر بدأ يوجه عنايته بالألفاظ، واستعمالاتها ودلالتها في السياق الذي ترد فيه.

---

(1) انظر محاضرات في تاريخ النقد- ابتسام الصفار- مرجع سابق- ص97.

وإذا انتقلنا إلى النقد في عصر النبوة والخلافة الراشدة، نجده قد بنى معظم الأحكام على المقياس الديني الخلقي ولم يلتفت إلى المنهج الفني واللغوي وهناك شواهد عديدة تدل على أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً قد التزموا بمنهج الرسول وموقفه من الشعر والشعراء فكانوا ينظرون إلى ما يقوله الشعراء بالمقياس الديني والخلقي، وقد ظهر هذا المنهج جلياً في ما نقله الرواة عن عمر الفاروق، فقد سجن الحطيئة وأراد أن يقطع لسانه بسبب هجائه للزبرقان بن بدر.

وأما في العصر الأموي فقد مر النقد بظروف مشابهة لما قبله، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الرواة عن ملاحظات نقدية لعبد الملك بن مروان وابنه يزيد والحجاج ابن يوسف الثقفي، ومن أمثلتها قول الحجاج رداً على ليلى الأخيلية التي قالت في مدحه.

إذا نـــزل الحجـــاج أرضـــاً مريضـــة * تتبـــع أقصـــى دائهـــا فشـــفاها

شـفاها مـن الـداء العضـال الـذي بهـا * غـــلام إذا هـــز القتـــاة ســـقاها

فقال لها: لو قلت (همام) لكان أبلغ، ولعل سبب ذلك أن كلمة (غلام) تدل على الخفة والطيش، وأما كلمة (همام) فتدل على القوة والرجولة.

ومثل هذه الملاحظات تعني بالمثال في انتقاء المفردة اللغوية التي تكون مناسبة للأداء الرمزي أكثر من الأداء اللغوي.

وعلى صعيد البناء اللغوي الشعري لاحظ النقد الأدبي القديم صلابة شعر الفرزدق، ورقة شعر جرير، فقالوا: (إن الفرزدق ينحت في صخر، وإن جريراً يغرف من بحر) [1].

وأما في القرن الثاني الهجري وما بعده لم يكن النقد انطباعياً تأثرياً، بل تنوعت اتجاهاته وتعمق مفهومه، فقد عنى أصحابه باللغة والوقوف على أسرار الإعجاز القرآني، وتعمقت نظراته بعض الشيء، والسبب في ذلك أن نقاد القرن الثاني علماء ترفدهم ثقافة لغوية وأدبية وتاريخية واسعة، وصار النقد علماً وصناعة كما قال بذلك ابن سلام، ولأن العلم بالشعر ليس سهلاً، والقول فيه يقتضي معرفة وذوقاً دقيقاً يمكن صاحبه من تمييز الغث من السمين[2].

(1) محمد بن سلام الجمحي- طبقات فحول الشعراء- تحقيق محمود محمد شاكر- ط2- ليدن- 1957م- ص208.
(2) إعجاز القرآن الكريم- الباقلاني- مرجع سابق- ص201.

ويقول السيوطي في مزهره: (إن علم اللغة من الدين، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة) [1].

وأبرز ما يلاحظ على النقد في هذه الفترة بروز الاتجاه اللغوي في النقد العربي وهو ما نحن بصدد دراسته في هذا البحث. والاعتناء بنقد النصوص، فضلاً عن استمرار الاتجاه الأدبي والفني وتعدد معاييره، والأصمعي وأبوعبيدة وخلف الأحمر أكثر هؤلاء اهتماماً بنقد الشعر في ضوء ما يروى عنهم من روايات في هذا الشأن)[2].

وقد قامت جهود هؤلاء الرواة على أساسين اثنين، الأول: تنقية وتهذيب اللغة، والآخر: توثيق النصوص، ويقول الأستاذ طه أحمد إبراهيم: (كان هؤلاء النحاة يتتبعون كلام العرب، ليستنبطوا منه قواعد النحو، أو وجوه الاشتقاق والأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجرهم بالضرورة إلى نقد الشعر لا من حيث عذوبته، أو رقته، وجماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها من إعراب أو وزن أو قافية، فأظهروا بعض ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في الصياغة، وما وقع فيه الإسلاميون) [3] من ذلك النقد أن عيسى بن عمر الثقفي أخذ على النابغة أنه رفع (ناقع) في البيت التالي:

فبت كأني ساورتني ضئيلة * من الرُّقش في أنيابها السم ناقع

وكان حقه النصب على الحال. وأخذ على الفرزدق أنه رفع آخر البيت الذي قال فيه:

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتاً أو مجلفُ

وتقول لنا كتب الأدب: أنه عندما سأله ابن أبي اسحق عن سبب رفع (مجلف) لم يجبه جواباً فيه وجه نحوي، وإنما أجابه بما يسخر منه بقوله (على ما يسؤوك

(1) جلال الدين السيوطي- المزهر- ج2- ط3- دار الكتاب العربي- تحقيق عبدالسلام هارون- 1979م- ص302.

(2) انظر محاضرات في تاريخ النقد عند العرب- ابتسام الصفار- مرجع سابق- ص95 وما بعدها.

(3) طه أحمد إبراهيم- تاريخ النقد عند العرب- ط2- القاهرة- 1957م- ص12 .

وينوؤك). وقال أبوعمرو بن العلاء أنه لا يعرف وجهاً لرفع الكلمة، وكذلك يونس النحوي)[1].

ولقد كان الرواة والنحويون والعلماء بالشعر يجدون في شعر الفرزدق ما يستهويهم، ويثير فيهم الجدل. وقد قيل: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة[2][3].

كما أخذ على الفرزدق تعقيد شعره والتواؤه، والبيت الآتي يكثر الاستشهاد به في البلاغة على التعقيد اللفظي الذي يؤثر في فصاحة الكلام.

وما مثله في الناس إلا مملكاً * أبوأمه حيٌّ أبوه يقاربه

وقال فيه النقاد: إنه أراد: وما مثله في الناس من يقاربه إلا ملك أبو أمه أبوه، فتعسف التعسف الشديد، ووضع الأشياء في غير موضعها، وهذا قبيح جداً، فقد فصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ، و(أبوه) وهو خبر المبتدأ بأجنبي وهو (حي)، وقدم المستثنى منه، وهجّن البيت بما أوقع من التقديم والتأخير ويقول المرزباني معقباً على هذا البيت: (فأتعب أهل اللغة والنحو بشرحه منهم سيبويه ومن بعده، ولم يبغوا منه ما يقنع ويرضي).

(ولم يكن النحويون يرضون عن الفصل بين المتضائفين، ويعدون هذا من قبيح التركيب، وقد لحظوا هذا عند الراعي النميري)[4].

والأمثلة كثيرة في هذا الباب، وأنماط النقد اللغوي تشهد على سعته وتشعبه فمنها- مثلاً – منع المصروف من الصرف، وتأنيث المذكر، وتنوين صيغة منتهى الجموع، والفصل بين المتلازمين، والخطأ الإعرابي، والخلل في الصيغ الاشتقاقية، كما رصدوا في الشعر ما هو دخيل في اللفظ الغريب والنادر) [5].

ولم يقتصر اهتمام علماء اللغة والشعر بتنقية الشعر مما يخل بفصاحته، أو يبعد به عن الصواب بل مضوا إلى أبعد من ذلك، فكانوا يستبدلون لفظاً بآخر إذا رأوا أن

---

(1) الموشح المرزباني- أبوعبدالله محمد بن عمران- تحقيق محمد علي البجاوي- القاهرة- 1956م- ج2- ط2- ص120- 161.

(2) الجاحظ أبوعثمان عمرو بن بحر- البيان والتبيين- تحقيق عبدالسلام هارون- مطبعة الخانجي- (د.ت) ج1- ط2- ص321.

(3) المرزباني- الموشح- مرجع سابق- ص162- 163.

(4) المصدر السابق- ص165.

(5) النقد عند اللغويين في القرن الثاني- سنية أحمد- بغداد- ط1- ص1977م- ص111.

هذا التعديل يحسن المعنى، والمرزباني مثلاً يروي عن خلف الأحمر ناصحاً الأصمعي. فأرووه هكذا، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء[1].

وهذه تعد إشارة خطيرة، لا تكشف عن أن الرواة كانوا لا يتورعون عن التعديل على وفق ما يتصورونه، أو حسب فهمهم للنص ومعناه، وقد يرى بعض النقاد أن هذا يقدح في أمانتهم العلمية.

وترتبط بالنقد اللغوي ظاهرة الاحتجاج أو الاستشهاد، والاحتجاج لغة: الغلبة بالحجة، والحجة: إقامة البرهان، أما الاستشهاد فمن الشهادة: وهي الخبر القاطع على صحة القاعدة أو الرأي) [2].

ولما كانت السلامة اللغوية والفصاحة مرتبطتين بالشعر الجاهلي، وشعر البادية على نحو خاص، ويرى بعض النقاد أن هؤلاء العلماء قد ضيقوا مجال الاستشهاد والاحتجاج، فقصروها على الجاهليين والإسلاميين الذين سلمت لغتهم من اللحن والفساد، وهذا الرأي لا تسنده الحجة لأن ما بعد هذين العصرين كثر الاختلاط بالعجم وظهر المولدون مما تسبب في فساد السليقة اللغوية.

وفي جانب الاحتجاج يروي الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء (جلست إليه عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي) [3]. وهذا يدلل على قَصّر الاستشهاد عنده وفقاً على الشعر الجاهلي. وكان أبوعمرو بن العلاء يرفض الاحتجاج بشعر الطرماح

(1) انظر محاضرات في تاريخ النقد عند العرب- ابتسام الصفاء- ص97.
(2) د.محمد عبد- الرواية والاستشهاد- ط1- القاهرة- 1976م- ص102.
(3) ابن رشيق القيرواني أبوعلي الحسن- العمدة-- القاهرة- 1954م- ط1- ج1- ص73.

ويقول: رأيته بسواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النبيط[1] وهذا الرأي قدح في الشعراء الذين يجمعون بين كتابة الشعر الفصيح والشعر العامي.

وليس من شك في أن غلبة التوجه اللغوي والنحوي على هؤلاء العلماء قادهم إلى التعصب المفرط للقديم، إذ كانوا يجدون فيه ما يدعمون به قواعد اللغة من نحو وصرف. وقد مارس علماء القرن الثاني للهجرة (النقد اللغوي) و(النقد النصي) و(النقد الشعري)، وقد أفادت آراؤهم النقد الأدبي كثيراً.

واعتمد النقاد اللاحقون بعضاً منها، وطوروا بعضها الآخر، ولن تجد مؤلفاً نقدياً بدءاً من القرن الثالث وحتى عصر ابن رشيق، وحازم القرطاجني لم يعترض لآرائهم، أو لم يقحم فصول كتابه على أفكارهم ومصطلحهم وتقسيماتهم، ولهذا كانت ملاحظاتهم حقاً جذوراً للنقد اللغوي العربي.

ومن هؤلاء النقاد من وضع خارطة طريق للشعراء في جملة من المعاني مثل: البعد عن الألفاظ الغثة والباردة، والمعاني المتكلفة النسج، القلقة القوافي، وينبغي على الشاعر أن يتجنب الإشارات البعيدة، والحكايات المغلقة، والإيماء المشكل، ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها[2]، ومن هنا جاءت نعوت المفردات وعيوبها، مثل نعت اللفظ في أن يكون سمحاً سهل المخارج عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة) [3].

أما العيوب: فهي: أن يكون جارياً على غير مسيل الإعراب واللغة.

ويرى قدامة بن جعفر أن النقاد اللغويين قد استقصوا هذا الباب، ومنه الحوشي الغريب، ورأى أن من الأعراب من جاء ذلك في شعره، لا عن تكلف، وإنما لعادته وسجيته، وبعض أصحاب التكلف يأتون من الغريب ما ينفر منه الطبع، وينبو عنه السمع.

---

(1) انظر: محاضرات في النقد عن العرب- ابتسام الصفار- مرجع سابق- ص98.
(2) ابن طباطبا العلوي- عيار الشعر- ط1- القاهرة- 1979م- ص79-77.
(3) قدامة بن جعفر- نقد الشعر- تحقيق كمال مصطفى ليدان- القاهرة- 1964م- ص20.

ومن عيوب اللفظ (المعاظلة) أي مداخلة الشيء في الشيء يقال تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى، وليس ذلك عنده غير الاستعارة الفاحشة[1].

ونعت الوزن: أن يكون سهل العروض، ومن ملامح هذا أن يكون فيه (الترصيع)، غير أن الترصيع لا يحسن في كل موضع، فقد يدل على التكلف[2].

أما عيوب الوزن: فهي الخروج عن العروض، ومنها: (التخليع): وهو أن يكون قبيح الوزن، قد أفرط في تزحيفه.

ونعت القوافي: أن تكون عذبة الحرف، سلسة المخرج، ومن محاسنها، (التصريع)، وللقوافي عيوب كثيرة منها: (التجميع) و(الإقواء) و(السناد) و(الإيطاء).

وقضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا النقدية التي تناولها النقاد، ويعد الجاحظ من أوائل من لفت الانتباه إلى البحث عن سر الإجادة في النص الأدبي، هل هو في أفكار الأديب وما يدعو إليه، أم في طريقة التعبير ومدى إجادته في إبراز المعنى، أو الفكرة الكامنة في ضميره، وهل الفضل في الإجادة عائد إلى المعاني أم إلى الألفاظ، وبعد صار رأي الجاحظ في هذا الموضوع منطلقاً وبداية لكل من يريد الخوض فيه حيث يقول: (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وحسن من التصوير) [3].

ونجد الجاحظ قد اشترط في الفصاحة والبلاغة لكل نص جيد بلاغة اللفظ فهي شرف المعنى.

ومن جذور النقد اللغوي في التراث النقدي العربي، قضية الإعجاز القرآني في الفكر البلاغي والنقدي العربي، ومما سبق يتأكد لنا أن عبدالقاهر الجرجاني لم يكن أول من تكلم فيها ولا آخرهم، ومع ذلك احتلت مؤلفاته مركزاً مرموقاً ضمن المؤلفات التي وضعت للتدليل على إعجاز القرآن الكريم، والسبب هو أن مؤلفه (دلائل الإعجاز) نظر إلى الإعجاز من زاوية لم تألفها معظم الدراسات السابقة واللاحقة، حتى ليصح القول أنه يمثل حلقة متميزة في سلسلة الدراسات التي عالجت الإعجاز

(1) المصدر السابق- ص174.
(2) المصدر السابق- ص28- ص32.
(3) الحيوان- الجاحظ- ج3- ص131.

القرآني على مر القرون، ولعل ما يميز الجرجاني في أنه بين أن الإعجاز القرآني إنما يكمن في النص القرآني نفسه وفيها يسميه (النظم) على وجه التحديد[1].

وفكرة النظم التي يفصل فيها الجرجاني القول كثيراً، ليست جديدة تماماً فجذورها قائمة في بعض كتابات الجاحظ كما عرفنا سابقاً في قضية اللفظ والمعنى، ومن الذين أشاروا إليها الرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبدالجبار.

وقال بعض النقاد المحدثين بأن الجرجاني تأثر بهم جميعاً.

وليس من شك في أن الجرجاني استوعب كل الأفكار التي سبقته في الموضوع، وفي ضوء هذا أجمع الدارسون على أن الجرجاني جاء بنظرية تطابق أحدث ما وصلت إليه النظرية الحديثة في علم اللغة، فالدكتور محمد مندور وهو من أوائل من التفت إلى أهمية الجرجاني في تاريخ النقد العربي، يقول: (منهج الجرجاني يستند إلى نظرية في اللغة، تماشي ما وصل إليه علم اللسانيات الحديث حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات)[2].

وقد حاولت بعض الدراسات أن تربط تفكير الجرجاني في (النظم) بالنظريات الأسلوبية المعاصرة[3].

فكرة النظم وعلاقتها بالقرآن:

---

(1) راجع محاضرات في النقد- د. ناصر حلاوي- ص381.
(2) د. محمد مندور- في الميزان الجديد- مؤسسة ابن عبدالله- تونس- ط1- 1988م- ص43.
(3) راجع مقال (مفهوم النظم عند عبدالقاهر الجرجاني- نصر أبوزيد- مجلة فصول عدد ديسمبر- 1984م.

مع نزول الوحي اهتم علماء اللغة بقضية استنتاج المعنى من أعظم نص معجز للحصول على البواطن المستورة ليصلوا إلى حقيقة فهم النص، ومن جملة ذلك موضوع تعيين المعنى ودور السياق، وأهمية فهم نظام اللغة من خلال فهم النص، وتعدد المعنى وأنواعه، ولما كان الجرجاني أشعرياً والأشاعرة يقولون: إن الكلام نوعان؛ نفسي ولفظي، والكلام النفسي بالنسبة إلى الله هو القديم، ومن أجل ذلك فقد استهدف عبدالقاهر في نظريته في النظم بيان أن الكلام جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي، بمعنى أن نظرية (النظم) تعتمد على المبدأ الأشعري الذي يفصل بين الدال والمدلول، ويسلم بأسبقية المعاني القائمة في النفس على الألفاظ الدالة عليها في النطق[1].

ونظرية النظم في اللغة طرحت بشكل أساسي في سياق معالجة عبدالقاهر الجرجاني لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وبذلك توصل الجرجاني إلى تفسير لعملية إنتاج الكلام ثم بنى عليها رأيه في خصوصية الكلام وتقريره. (لقد كان هدف عبدالقاهر الجرجاني البرهنة على أن القرآن معجز بالنظم، وأن بلاغة الكلام لا ترجع إلى ألفاظه وإنما إلى ما بينها من ارتباط، هذه النظرية تعطي صوراً جلية لأسلوبه فنراه يحدد الإجراءات الأسلوبية التي يقوم بها الناظم فتكسب الأسلوب.

ونظرية النظم عند عبدالقاهر تقوم على إنكار أن يكون الإعجاز في ألفاظ القرآن وحدها أو في معاني الكلمات مفردة، كما يرفض أن يكون في ترتيب الحركات والسكنات أو في الفواصل، ومن هنا لم يبق إلا أن يكون الإعجاز في النظم والتأليف[2].

(1) د. أحمد مطلوب عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده- بغداد- دار الحرية- ط1- 1980م- ص42.
(2) المصدر السابق- ص55.

ويكتسب الأسلوب سمته الخاصة في هذه الإجراءات: الفصل والوصل والتقديم والتأخير والإضمار والإظهار والتعريف والتنكير والقصر والاختصاص والنفي والاستفهام. وسوف نلقي الضوء على بعض هذه الأبواب لنتمكن من توضيح هذه الفكرة، يقول في حديثه عن الاستفهام بالهمزة (إنه متى قدم الفعل بعدها كان الاستفهام عن الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجود كقولك: (أفعلت هذا؟)، وأما إذا قدمت الفاعل فقلت: (أأنت فعلت) كان الاستفهام عن الفاعل والشك والتردد فيه فتقول: أبنيت الدار؟ إذا أردت أن تبين الفعل وتقول: أأنت بنيت الدار؟ إذا أردت أن تبين الفاعل) [1].

والأسلوب هو الهيئة التي يخرج بها الكلام لفظاً ومعنى[2]، فهذه المعاني المتولدة من التراكيب دفعت الدكتور محمد مندور إلى القول: (إنه يستند إلى نظرة في اللغة أرى فيها ويرى غيري من يمعن النظر في أنها تتماشى مع ما توصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء نجدها في آخر (دلائل الإعجاز) حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات، وعلى هذا الأساس بنى عبدالقاهر كل تفكيره اللغوي.

والنحو عند عبدالقاهر الجرجاني ليس مجرد أواخر كلام، وإنما العلاقات والروابط بين الكلم وما يتولد عنها من معانٍ وقد حشد الكثير من الأمثلة والشواهد

(1) عبدالقاهر الجرجاني- دلائل الإعجاز- محمود محمد شاكر ربط- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1992م- ص81- راجع سامي محمد عبائية- التفكير الأسلوبي- عالم الكتب الحديث- اربد- الأردن- ط2007م- ص100.

(2) انظر أحمد الشايب- الأسلوب- ص22- محمد المطلب- مفهوم الأسلوب في التراث مجلة فصول مجلد 7- عدد3- 1987م- ص50.

ليدلل على هذه النظرية ويدافع عنها ويقول: (لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه في كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، ومنطلق زيد، وأعلم أنك إذا قلت: (زيد المنطلق، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقاً كان لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيد من ذلك ابتداءً، وإذا قلت زيد المنطلق، كان كلامك مع من عرف انطلاقاً كان إما من زيد أو عمر)[1].

وسوف نتناول النقد اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني في أربعة مطالب:

- المطلب الأول: فكرة النظم وعلاقتها بالنحو:

لقد عالج الجرجاني كثيراً من القضايا النحوية من الوجهة البلاغية بمنهج يختلف تماماً عن منهج النحاة، كما يختلف فهمه لهذه الأساليب اختلافاً كبيراً، فالنحو عنده عمدة البيان الذي يحلل النصوص، ويفصل بعضها عن بعض (لقد كان عبد القاهر الجرجاني في غاية الذكاء والفطنة عندما وضع قاعدته الشهيرة واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه.

(1) درويش الجندي- انظر النظم عند الجرجاني- مكتبة نهضة مصر بالفوجانا- 1960م- ص47. انظر جابر عصفور- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي- المركز الثقافي العربي- بيروت- ط3- 1992م- ص17. راجع تمام حسان - الأصول دار الثقافة- ط- الدار البيضاء- 1981م- ص300- انظر أحمد مطلوب- عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده- ط1- بيروت- 1973م- ص27.

وهذا ما يؤكده الدكتور محمد مندور:" فمنهج هذا المفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، منهج النحو، على أن نفهم من النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء، فعبد القاهر لا يريد الحركات الظاهرة، إنما يريد معنىً أعمق هو النظام النحوي للكلام، ولقد رد على من سخر من هذه النظرة ولكنهم قالوا: لو كان النظم الذي كان في معاني النحو، لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو، لا يتأتى له نظم الكلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم الكلام لا يحسنه المتقدّم في علم النحو) [(1)].

ويقول عبد القاهر الجرجاني: إنه لا اعتبار عندنا بمعرفة مدلول العبارة إلا بمعرفة العبارة، فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: (جاءني زيد الراكب) وبين قوله: (جاءني زيد راكباً)، كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في (راكب) إنها حال، وإذا قال (الراكب) إنها صفة جارية على زيد[(2)].

ومن هنا يتبين لنا أن للنحو عند الجرجاني معاني عميقة واسعة، فليس الهدف من النحو الشكلية من رفع، ونصب، وجر، وتقديم، وتأخير، وإنما يقصد من ورائها (النحو البلاغي أو البلاغة النحوية، وبذلك يعد أول عالم أخرج النحو من نطاق

(1) محمد مندور – في الميزان الجديد- مؤسسة بن عبد الله- تونس- ط1 1988م- ص 147.
- انظر عبدالقاهر الجرجاني- دلائل الإعجاز للجرجاني- ص374.
- راجع محمد مندور- النقد المنهجي عند العرب- دار نهضة مصر- الفجالة – القاهرة- 2004م- ص336.
- راجع شوقي ضيف - البلاغة تطور وتاريخ - دار المعارف- مصر- القاهرة- ط8- ص117-118.
(2) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز- 320 ص .

الشكلية، وجفافه، وسما به فوق الخلافات والمحلات حول الإعراب والبناء، وبعث فيه دفء اللذة الشعورية والعقلية معاً، وأخضعه لفكرة النظم، وأخضع الفكرة إليه .

ومن أجمل ما تحدث عنه الجرجاني لإثبات نظريته تقديم النفي، يقول: فإذا قلت: ما فعلت؟ - كنت قد نفيت فعلاً لم يثبت أنه مفعول، وإذا قلت (ما أنا فعلت) كنت نفيت عنك فعلاً ثبت أنه مفعول، وأما إذا كان في الجملة مفعول . فإن قلت: (ما ضربت زيداً) فقدمت الفعل كان المعنى أنك قد نفيت أن يكون وقع منك ضرب على زيد، وإذا قلت: (ما زيداً ضربتُ) فقدمت المفعول كان المعنى أن ضرباً وقع منك على إنسان وظن أن ذلك الإنسان زيد، فنفيت أن يكون إياه . فالمعنى عند عبد القاهر كل ما تولد من ارتباط الكلم بعضه ببعض، فهو الفكر، والإحساس، والصورة، والصوت، وهو كل ما ينشأ عن النظم والصياغة من خصائص ومزايا[1].

لقد نقل الجرجاني النحو إلى جو يذخر بالحيوية وجعل موضوعاته ميداناً يجول في ذهنه الوقاد وقلمه البليغ، وطلع الناس على ألوان من التعبير مرت لهم ولكنهم لم يتذوقوها، ولم يقفوا على روعتها وجمالها حتى جاء، فإذا التقديم والذكر والحذف والفصل والوصل مادته التي أعاد تشكيلها، وأضفى عليها من روحه ما لا نجده عند السابقين ..) .

(1) راجع أحمد مطلوب- عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده- مرجع سابق- ص67.

والخلاصة: إنّ عبد القاهر الجرجاني أضفى على النحو صبغة جديدة تتجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيّن أن للكلم نَظْمَاً وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى البحث النحوي .

المطلب الثاني: أثر السياق اللغوي في رفد الدلالة:

انتبه الجرجاني إلى قيمة السياق في رفد الدلالة، وأرجع المزيّة إلى علاقة الكلمة بما يجاورها يقول: " أعلم أنّ ههنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب، وينكر من جانب آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما من فوائد . وهذا علم شريف وأصل عظيم " .

فالجرجاني في نظره للسياق يؤكد أن لا معنى لتفاصيل الكلمات من غير النظر إلى السياق الذي وردت فيه . وقد مثّل ذلك بقوله: " لو عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق وأبطل نضره ونظامه الذي عليه بنى، وفيه أفرغ المعنى وأجرى، وغير ترتيبه الذي أفاد ما أفاد فقيل: " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل " " ومنزل قفا ذكرى من نبك حبيب " خرج عن كمال البيان إلى مجال الهذيان، وسقطت نسبته من صاحبه) . هذا التعريف الموجز والشرح الشافي له الذي قدمه الجرجاني لا يختلف عن مفهوم الناقد الأمريكي (روبرت شولز) في كتابه (اللغة) . الذي يعرف النسق من منظور بنيوي قائلاً: " يجب أن نؤكد أن النسق اللغوي ليس وجوداً محسوساً .... إنّ أي نظام إنساني لكي يصبح علماً يجب أن ينتقل من الظواهر التي يسجلها إلى النسق الذي يحكمها من الكلم إلى اللغة، إذ لا يمكن لمنطوق أدبي أن

يكون له معنى . لذا افتقدنا الإحساس بالنسق الأدبي الذي ينتمي إليه، فالمعنى عنده متأتٍ من السياق لا من اللفظ أو المعنى، وبذلك قضي على هذه الثنائية، فكلما تولد من ارتباط الكلام لبعضه ببعض، هو الفكر والإحساس والصورة والصوت والصياغة[1].

ولقد أولى الجرجاني السياق عناية خاصة، فالفضيلة ترجع إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض يقول: " هل يضع من وَهْم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ..... وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة إلا غرضهما أن يعبروا بالتمكن عن حسن الإتقان بين هذه وتلك من جهة المعنى " [2] " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: چ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ چ[3]. فإنك ما وجدت المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضه ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة والرابعة، وهكذا إلى أن يستقر بها إلى آخرها، وإن الفضل ناتج ما بينهما وحصل من مجموعها .

وهذه نظرة واضحة في مجال النقد اللغوي توصل لها الجرجاني دون أن يضيف شيئاً يذكر، يقول:" ومعنى أي لفظة لا يمكن أن يحدد إلا من علاقة هذه اللفظة

---

(1) راجع دلائل الإعجاز – الجرجاني ص 353 – وأسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجاني وت محمد شريف رضا – ط6 – القاهرة – 1959م- ص 33 .

(2) د. محمد زكي العشماوي - قضايا النقد الأدبي- دار النهضة المصرية- بيروت- ط3- 1984م- ص300.

(3) سورة هود الآية 44 .

بما يجاورها من ألفاظ . وإذا انتقلنا إلى قول:" ت.س إليوت" نجده كذلك لم يتعد موقف الجرجاني من السياق " إن الكلمات الواردة في السياق كله بالإضافة إلى العلاقات الناشئة من معنى الكلمة في السياق الذي وردت فيه ومعانيها الأخرى التي اكتسبتها من استعمالاتها وارتباطات السياق كثيرة أو قليلة، والثابت أن الجرجاني جعل دلالة الكلمة ضمن السياق على ضربين: دلالة أولية ودلالة معنوية، وقد نظر (الجرجاني) إلى الخطاب ككل متكامل لا يمكن الجانب اللغوي فيه من المقام الذي يرد فيه، وبذلك يتعاضد السياق اللغوي وسياق الحال على إبراز الدلالة وفهم مرامي الكلام "[1].

ويقول (الجرجاني):" الكلام على ضربين: ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا أخبرت عن زيد مثلاً بالخروج " خرج زيد " وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكفاية والاستعارة والتمثيل ألا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر ... يعقل السامع من ذلك على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك إنه مضياف ... وإذا عرفت هذه الجملة فهمنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: (المعنى ومعنى المعنى)، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه من غير وساطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك المعنى إلى معنى آخر" فالمعاني الإضافية عنده هي أساس حمل الكلام وإليها ترجع الفضيلة والمزية، وهذه الفكرة لم يلتفت إليها أحد من نقاد العرب السابقين، وقد تحدث عنها النقاد المعاصرون

(1) راجع قضايا النقد الأدبي – د. محمد زكي العشماوي- مرجع سابق- ص 320 .

وسموها (معنى المعنى) . فهو يفرّق في كلامه المتقدم بين المعنى المعجمي للفظ وما يدل عليه الكلام بدلالة اللفظ وحده وبين المعنى النحوي الذي يتحقق من خلال فهم الكلام بضم بعضه إلى بعض بحسب العلاقات النحوية بين الألفاظ . فيظهر المعنى بوساطة المستوى النحوي للغة .

أما جاكبسون فقد تنبه إلى هذه الثنائية القائمة بين المستوى المعجمي المادي للغة، وبين المستوى النحوي لها، وقد وصفها أيضاً بأنها واقعية بنيوية موضوعية . فالألفاظ في وجودها اللغوي لا قيمة لها في نفسها من حيث هي، ومن ثم لا تكون مناط فضيلة، ولا تكون قابلة لاستحسان أو استهجان، فكل لفظ دال على معنى، له مقامه الذي يحسن فيه، ومقامه الذي يقبح فيه، وشأن اللفظ في عالم البيان شأن المرء في عالم الإنسان، قيمته في سياقه وعلاقاته الاجتماعية بإخوانه"[1].

ونرى عبد القادر الجرجاني يعود مرات ومرات من أجل تحقيق الدلالة يقول:" وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم عن معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فأعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في نفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تُعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام بحسب موقع بعضها من بعض" [2].

(1) أنظر دلائل الإعجاز – الجرجاني – ص 262 .
(2) أنظر عبد القادر الجرجاني بلاغته ونقده- د. أحمد مطلوب- ص109 .

إنّ دراسة الأنماط النحوية للجملة خارج السياق الكلامي غير كافية لتبيان كيف تؤدي اللغة وظيفة الاتصال، ويعني ذلك أنه يجب دراسة كيف تحمل الأنماط النحوية للجملة فائدة بالنسبة للسامع (المخاطب) تتجلى في حصوله على شيء جديد حين يدرك غرض المتكلم من كلامه، ويتم ذلك بربط دراسة الأنماط النحوية للجملة بقضية الإبلاغ حسب المقام أو الموقف الكلامي، فنظرية النظم أثبتت _ أساساً – على قضية السياق والموقف الكلامي الذي يتطلب – كلما تغير – نمطاً معيناً من التركيب، ويدخل ضمن الموقف الكلامي كل ما يتصل بظروف عملية الإبلاغ، من مخاطِب ومخاطَب[1].

ومن هنا بنى الدكتور تمام حسان فكرة القرائن (فكرة التعليق النحوي) التي استوحاها من عبد القاهر الجرجاني وقد اعترف بفضل الجرجاني صراحة عند حديثه عن نظرية النظم حين قال:" لما ظهر الاتجاه البلاغي إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه " دلائل الإعجاز " و "أسرار البلاغة" للعلامة عبد القاهر الجرجاني الذي اعترف لأرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل[2]، ثم يبين أهميتها من فهم التركيب ولقد كانت مبادرة العلامة عبد القاهر رحمه الله بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وتركيب وترتيب وتغليف من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب – ومع قطع النظر عن رأيي الشخصي في قيمة البلاغة العربية بعامه من حيث كونها منهجاً من مناهج النقد الأدبي وعن

(1) مجلة التراث العربي – السياق عند البلاغيين ملامحه وتطبيقاته – مسعود بودوخة- العدد 111- أيلول 2008م .

(2) د. تمام حسان – اللغة العربية معناها ومبناها- الدار اللبنانية للكتب- ط2- 1983م- ص 10 - 11 .

صلاحيتها في هذا المجال تجدني مدفوعاً إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفاً إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر[1].

المطلب الثالث: التركيب اللغوي للصورة الفنية:

تحدثنا في المطلبين السابقين عن النظم وصلته بالنحو، فالنحو عند عبدالقاهر الجرجاني ليس مجرد أواخر الكلم، وإنما العلاقات والروابط بين الكلم وما يتولد عنها من معان . ومن هنا فقد بيّن الجرجاني دور العلاقات النحوية في صياغة المفردات في الجملة ودورها في تشكيل الصورة، ويوضح مقصده في بيت بشار بن برد:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

يقول: " هل يتصوّر أن يكون بشار قد أحضر معاني هذه الكلم ببالـه أفراداً عارية من معاني النحو التي نراها فيها وأن يكون أوقع، كأن في نفسه من غير أن يكون قصر إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكّر في (مثار النقع) من دون أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى (الرؤوس) ومن (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار) وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكر في (الليل) من دون أن يكون قد أراد أن يجعله خبراً لـ(كأن) وفي (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون قد أراد أن يجعل (تهاوى) فعلاً (للكواكب)، ثم

(1) د. عبد العزيز حمودة – المرايا المقعرة- مرجع سابق- ص 238 .

يجعل الجملة صفة الأشياء بباله إلا مُراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟ ليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى؟ ومعنى القصد الكلم أن تعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها، فلا تقول: خرج زيد تتعلمه معنى (خرج) في اللغة، ومعنى (زيد) كيف ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف معانيها كما تعرف" [1].

فهذا النص يؤكد فهم الجرجاني للتراكيب النحوية ودورها في توليد معاني جديدة للكلمة تكتسبها بفعل العلاقة النحوية بين الألفاظ، وبذلك يصبح (الأسلوب)، هو الهيئة التي يخرج بها الكلام لفظاً ومعنى من خلال استغلال إمكانيات النحو، ومن هنا نستطيع أن نفسّر السر بين ارتباط النظم بمعاني النحو "أي أن النظم ليس صياغة شكلية بل صياغة دلالية ومعنوية بالدرجة الأولى، وهذه الصياغة مرتبطة أصلاً بالحركة النفسية والوجدانية للمتكلم، ومن هنا تأتي خصوصية الكلام وارتباطه بصاحبه دون غيره، فإذا ألغيت هذه الروابط فقد الكلام نسبته إلى صاحبه .

إذن نستطيع القول إن عبد القاهر الجرجاني انطلق من التركيب اللغوي والاهتمام بمستويات الكلام إلى المعاني التي تنتج الصورة الفنية، يقول: " وكذلك إذا جعل المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة، ويبدو في هيئة، ويتشكل بشكل يرجع المعنى في ذلك كله إلى الدلالات المعنوية، ولا يصلح شيءٌ منه حيث الكلام على

(1) عبد القاهر الجرجاني- دلائل الإعجاز- ص 267- راجع- عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده- د. أحمد مطلوب- ص 36 .

ظاهره وحيث لا يكون كناية وتمثيلاً به ولا استعارة ولا استعانة في الجملة بمعنى على معنى. وتكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ بصورة خاصة[1].

ولعله استطاع بفطنته وذكائه أن يحدد دور الألفاظ والمعاني في تشكيل الصورة الفنية، وبذلك يكون قد قضى على ثنائية اللفظ والمعنى، فاللفظ عند الجرجاني بكل إمكاناته صوتية أو غير صوتية في خدمة المعنى، والمعنى هو كل ما ينتج عن السياق من فكر وإحساس وصورة وصوت:

يقول:" ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار، وبذلك تصبح المعاني والصور المترتبة في النفس هي الهيئة التي يخرج بها الكلام من خلال مستويات اللغة المختلفة، فالنظم صناعة كالصياغة والصور الناتجة عن هذه الصياغة هي تجسيد للأسلوب [2].

المطلب الرابع: نموذج تطبيقي وفق نظرية النظم:

ولما قضينا من منى كل حـــاجة * ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدَّت على حدب المهاري رحالنا * ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحـــاديث بيننا * وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

(1) سامي عبانية – التفكير الأسلوبي – الأردن ط1- 1991م- ص 98 .

(2) دكتور ابتسام حمدان- مجلة مجمع اللغة العربية- دمشق- م84- ج1- 1988م- ص69 .

وقف عبد القاهر الجرجاني في تحليله لهذه الأبيات على مستويات اللغة كافة من تراكيب نحوية، ومعانٍ لغوية، وصور بلاغية تفضي إلى انكشاف كل ما يشتمل عليه البناء اللغوي من جمال يؤدي إلى وصول المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع. توقف عند قول الشاعر: (ولما قضينا من منىً كل حاجة) وربط هذه الجملة (جملة الشرط) بجواب الشرط (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) وجعل ما بينهما بمثابة امتداد زمني بين فعل الشرط وجوابه، هذا الامتداد الزمني وما شكّله من فراغ بين الشرط وجوابه كان في انشغال الركبان بالعبادة، ثم استماع التهاني والتحايا والتبريكات لجموع حجاج القافلة التي كان الشاعر في معيتها.

الخاتمة

البحث في مجمله يمثل نظرة متأنية في تراثنا في النقد اللغوي، وقد أفرز لنا بشكل واضح الجذور اللغوية لهذا النقد التي أحاطت به وأثرت فيه، كما تم التركيز فيه على النظرية اللغوية الجرجانية (نظرية النظم) التي تناولتها جهود علماء العربية الأفذاذ فقد تحدث العلماء القدامى عن العلاقة اللغوية وفكرة الاتصال عند حد اللغة، كما تحدثوا عن إشكالية اللفظ والمعنى وخاصة الجاحظ وابن قتيبة، وقد بين البحث أن نظرية (النظم) هي نتاج مجموعة من العقول انتمت إلى عدد من الأجيال، وعبدالقاهر

الجرجاني لم يكن بديع أفكاره، وذلك لأنه لم ينشء أفكاره من العدم، لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة العلاقات بين العلامات اللغوية، ومن هنا يحق لنا القول بأن عبدالقاهر الجرجاني والقواعد التي بنى عليها نظريته الشهيرة (نظرية النظم).

وقد توصل الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

أولاً: النتائج:

[1] إن النقد عند العرب صناعة وعلم، ولابد للناقد من التمكن من أدواته.

[2] النماذج النقدية تدل على أن أصحابها يتميزون بحس لغوي وأدبي كبير.

[3] ظهور النقد اللغوي في القرنين الثاني والثالث جاء خدمة للقرآن الكريم.

[4] نظرية النظم تقوم على إنكار أن الإعجاز في الألفاظ أو المعاني وإنما في النظم والتأليف.

[5] نظرية النظم أضفت على النحو صبغة جديدة تجاوزت أواخر الكلم وعلامات الإعراب.

[6] انتهت الدراسة إلى قيمة السياق في رمز الدلالة.

[7] أبرزت الدراسة دور العلاقات النحوية في صياغة المفردات ودورها في تشكيل الصورة الفنية.

ثانياً: التوصيات:

[1] قراءة التراث النقدي قراءة تأصيلية تبرز القيم المعرفية للتراث.

[2] العمل الدؤوب المتواصل من أجل إبراز جوانب التراث وخاصة ما يتصل بالدراسات الأدبية واللغوية الحديثة.

[3] إثبات السبق الزمني للفكر النقدي العربي وبيان أثره في النظريات النقدية الغربية.

[4] إبراز البناء اللغوي الشعري لبيان الصورة الفنية.